الفصل الثالث

# مَنْزِلَةُ الكَشْفِ والتَّجَلِّي

## مِنْ سُرَى الدَّيْجُورِ إلى مَعَارِجِ النُّور!

كان الإمام بديع الزمان النورسي قد أشعل قناديل النور بجميع بلاد الأناضول..! عندما حُطّمت أعشاش اليمام، وخنق الهديل في حناجر الحمام، وكسرت المصابيح فوق رؤوس المتهجدين، فانكسفت الشمس حزناً على فقدان أقمارها، وانتشر الظلام في كل مكان؛ حينئذ غادر الإمام النورسي فراشه بليل، وخرج في هوج العواصف، يوزع الشموع على بيوت الفقراء.

كان الظلام الزاحف على البلاد قد عصف بكل مصابيح المدائن الحزينة، فأطفأها جميعاً!.. وصدرت قوانين مصادرة النور، عَصْفَةً بعد أخرى، حتى عم الظلام الدامس كل مكان، فلا حق للمساجد في ذرف دموع النور، ولا في احتضان المواجيد المشتعلة!.. ولا حق للكتاتيب في توفير أعشاشها الدافئة لفراخ الطير، إذ تصدح في الأمة كل صباح بوعود القرآن.. ولا حق لحروف العربية في أن ترسم على لوحات الروح نزيفَ القلب المجروح.. كل العمائم قد اقتطفها رصاص الغدر في حرب القُبَّعَاتِ، فَذُبِّحَ الأئمةُ والمؤذنون، وشُرِّدَتْ أصداءُ الذكر فيما وراء البحر، وصودرت مفاتيح المساجد كلها، وطُردت أسرابُ النوارس والحمام من على أبراجها، وحُطِّمَتْ أعشاشُها من بين المآذن والقِباب، وأصبح فؤاد المدينة فارغاً.. ولا حق للأذان حتى في البكاء!

وأَذِنَ الظلامُ لأشباح الليل في الطواف بالبلاد، تختطف الأطفال

والشباب، وتهتك الحجاب على أعراض المسلمين! وتُعلم الغربانَ أن تغني على رؤوس المستضعفين برطانة الشتائم والسِّباب! فنفضت جميعُ الأشجار أوراقَها حَزَناً، وهاجرت كل الأطيار إلى المجهول، ولم تَعُدْ قط إلى أعشاشها! فَأَقْفَرَتْ كلُّ الوجوه في الأزقة والدروب من وميضِ بِشْرِهَا! وبِمَ يستبشرون أو لماذا يضحكون؟ كيف؟ وهَا علماءُ البلاد قد قُتِّلُوا تقتيلاً، أو هُجِّرُوا تهجيراً!..

لكن بديع الزمان وحده بقي هناك، يبشر الناسَ بالأمطار والأنوار!.. ويغرف في منفاه من بحار القرآن، ويرسل الغيوم إلى المدائن الحزينة. ولم يزل يكتب رسائل النور ما بين المنافي والسجون، ثم يُهَرِّبُهَا مع الريح إلى بيوت الفقراء حتى اشتعلت المواجيد بالأشواق والبروق.. وهطل المطر!

لقد أدرك النورسي ببصيرته القرآنية أن هذا الزمان هو زمان إنقاذ الإيمان، وبعث الأمل في الشعوب، وأن واجب الوقت هو محاربة الزندقة والإلحاد، وإفشال مخطط تجهيل البلاد؛ فتفرغ لتعليم العصافير الصغيرة سورةَ الفتح!..

عندما فَتَكَ الذئبُ بالراعي، وتولى رعاية القطيع بنفسه؛ جعل بديع الزمان يصارع من أجل انتزاع الخراف من بين يديه! عندما كان الناس يفزعون إلى مخابئهم، كان هو يعلمهم أن يفزعوا إلى حصون القرآن! كان يرسم في رسائل النور معالم الطريق للخروج من دياجير اليأس القاتل، ويثقب في صخر الكهف المظلم ثغرة صغيرة، يبصرون من خلالها أشعة الشمس المشرقة على المستقبل.

وقاد النورسي بذلك قلوب الشعب التركي كله، وسيف السلطان لم يزل في قبضة الشيطان! ولا طاقة لشيطان في مغالبة سلطان القرآن!

فأنقذ الشيخُ خِرَافَهُ من بين مخالب الذئب الأغبر، وتركه يعوي في تَلَّتِهِ مغتاظاً..!

تلك المرحلة الأولى من دعوة النور، قد أوصلها النورسي إلى أن وقفت على باب مقام الهجرة وما بين مكة والمدينة سَفَرٌ آخَرُ، يَقْدَحُ أشواقاً حَرَّى، لبناء أمة الشهادة على الناس! لكن النورسي ترك رسالته لفتى الأسرار، ثم رحل.. فلكل زمان صاحبُه، ولا شمعة تحترق بنورها مرتين! فأبشر يا صاح؛ فإنه لا يخرج للناس من مدرسة القرآن إلا إمام مأذون!

حدثني راوي الأشجان قال:

لَمَّا كان بديع الزمان يجاهد الظلام في خريفه الثمانين، كان فتح الله قد بدأ يتسلق دالية الشباب.. حيث تعرَّف على رسائل النور سنة ١٩٥٧م، ولم يكن يومئذ قد تجاوز سن التاسعة عشرة من عمره!

كان النورسي قد أنجز خطوة جبارة في سحب بساط الطغيان من تحت أقدام الشيطان. ثم حرث الأرض، وخَصَّبها، وبذر البذور في كل مكان، وترك لطلابه رسائلَ في أسرار الفلاحة وخصائصها، ثم اختفى.

وجاء فتح الله..

عندما عثر الفتى على رسائل النور، أدرك أنه هو المخاطَب بها خصيصاً. وعَلِمَ أن عليه أن ينجز الخطوة الثانية، وأن يرعى البذور حتى تؤتي ثمارها. وأدرك أن هذه الفلاحة ليست ترتوي بغير دموع العاشقين، ومن ثم لم يزل يبكي حتى انتفخت مقلتاه..! فكانت الحقول تخضر لنشيجه، وكانت الثمار تزدهي لشهيقه العميق! وكانت الرياح تهب الهوينى خاشعة عند مسجده، فليست تؤذي من غِرَاسِهِ الكريم من شجر ولا ثمر..!

عندما فَقَدَ النورسي قَبْرَهُ المغصوبَ، رقد في قلب فتح الله خُفْيَةً،

فخرج الفتى على الناس متكلماً بلسانه، لكنهم أنكروه وجحدوه، فبكى ثم بكى..! ولم يزل يبكي حتى اهتزت الأرض وَرَبَتْ، وأنبتت من كل زوج بهيج.. ثم كانت الأشجار والأطيار، واخضرت عيون الناس في كل مكان، وغرد الأمل، ولكن فتح الله لم يزل يبكي.. فواعجباً!

فَتْحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ لَيْسَ يَبُوحُ بِهِ!..

فَتْحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ تنتظره الدنيا، لكن لا يخبر به أحداً!..

فَتْحُ اللهِ يحمل في قلبه ما لا طاقة له به؛ ولذلك لم يزل يبكي؛ حتى احتار الدمعُ لِمَأْتَمِهِ!

فَتْحُ اللهِ وارثُ سِرٍّ، لو وَرِثَهُ الجبل العالي؛ لانهدَّ الصخر من أعلى قمته، ولَخَرَّتْ أركانُ قواعدِه رَهَباً!

.....

عندما وجد فتح الله رسائل النور انكشفت له خريطةُ فَتْحِ العالَم، فتحسس محفظةَ مَفَاتِحِهِ، وتَوَقَّدَ جمرُ مواجده لهباً... ثم دخل محراب الليل وحيداً، فاتبع به سبباً.

* * *

"محمد قِرْقِنْجِي"، طالبُ عِلْمٍ وطالبُ نور، دَرَسَ مع فتح الله في حلقة الأستاذ عثمان بكتاش، لكنه كان أكبر منه سِنّاً بكثير. فقد كان قِرْقِنْجِي في حلقة المتقدمين، وكان فتح الله حديث القدوم إلى المدرسة، فلما أدرك الأستاذ عثمان تفوق الفتى ألحقه بحلقة المتقدمين فكان أصغرهم سِنّاً.

محمد قِرْقِنْجِي كان قد تعرف على رسائل النور للأستاذ بديع الزمان النورسي رحمه الله.. كان النورسي ساعتها يضرب بعصا الترحال بين السجون والمنافي، محاصَراً بأشباح المخابرات ليل نهار! ومن ثَمَّ كان

الانتماء إلى جماعته يعتبر مغامرة قد تُلقي بصاحبها في غيابات السجون! ولكن طلاب النور كانوا -رغم ذلك- يحملون الجمر بأيديهم، ويوزعون الدفء والنور على المستضعفين في كل مكان!

ذات مساء ملتهب الأشجان، جاء قِرْقِنْجِي إلى فتح الله، فوجده جالسا مع زميليه في الدراسة "حاتم" و"صلاح الدين"، فأخبرهما بأن رجلا غريبا قد قَدِمَ إلى أرضروم من عند الأستاذ بديع الزمان النورسي، وأنه سيعقد مجلسا بمكان ما في المدينة ليلا، وسيلقي كلمة. فرغبهم في الحضور، وما كان منهم إلا أن وافقوا على الفور مسرورين. فقد كان اسم بديع الزمان جاريا على كل لسان، وإن لم يكن قد سَعِدَ برؤيته إلا القليل.. وجعل قلب فتح الله يخفق بقوة لعله يُسَرِّعُ من وتيرة الزمن فيحل موعد اللقاء، ويشاهد هذا الرجلَ الذي شاهد الأستاذ النورسي. ولِمَ لاَ؟ فقد كان بديع الزمان يومئذ -ولم يزل- أسطورة بطولية، وخارقة نورية، تبهر القلوب بكل بلاد الأناضول! أوَليس هو الذي هزم الإنجليز بـ"ست خطوات" فقط؟! أوَليس هو الذي أذل قائد الروس -وهو أسير- ببلادهم، فقتلوه ولم يمت؟ أوَليس هو الذي حاصر الحرائق التي أوقدها الشيطان في تركيا كلها، فأطفأها الرجل بمجرد "كلمات صغيرة"، ألقاها فوق اللهيب فخنس إلى الأبد؟ ثم أليس هو "آخر الفرسان" الذي بقي يحمل راية الجيش العثماني، ويرسم طريق النور لفتح العالم، في زمن اليأس والانهيار؟ فَلِمَ لاَ تتعلق بحبه القلوب وتهفو لرؤيته النفوس؟

وما أن دقت ساعة الموعد حتى كان الطلاب أمام مكان اللقاء! كان مجرد دكان لخياط اسمه "محمد شَرْكِيل". مكان ضيق لا يتسع لأكثر من حلقة صغيرة من الجلساء! وكان الليل قد ابتلع حركة الناس في المدينة،

وقطع ضجيج الباعة والأسواق، فأقفرت الشوارع والدروب من المارة إلا قليلاً.

وتحلق الحاضرون بحميمية بالغة، كأنهم أسرة واحدة اجتمع أفرادها بعد فراق طويل، رغم أن أغلب هؤلاء لم يكن يعرف بعضهم بعضا إلا بواسطة "محمد قِرْقِنْجِي".

مجلس صغير من مهنيين وبضعة طلاب، كان لهم بعدُ في تاريخ دعوة النور أثر عظيم!.. أما فتح الله فقد وجد لقاح سره، وبرق غيمته، ورياح مطره، فبكى! ومن كان يدري أن ذلك المجلس الدافئ، سيقدح شرارة الفتوح في قلب الفتى؟ أو من كان يدري أن ذلك الشاب اللطيف، هو من سيركب فرس السلطان محمد الفاتح، ويعبر بقوائمه بحر الظلمات؟

## رجل يسافر في الزمان..!

عندما جلس مُظَفَّرٌ أَرْسَلاَن منتظما بهدوء ضمن عِقْدِ حلقة النور، توجهت كل الأنظار إليه.. هذا هو رسول بديع الزمان النورسي إلى أرضروم! إنه أحد تلامذته الأوائل، الذين شاركوه محن السجون والمنافي، فما وهنوا في تبليغ رسالة النور، ولا في محاصرة خفافيش الظلام. كان مُظَفَّرٌ رجلا متواضعا بسيطا، هادئ السمت. أرسله بديع الزمان ليتجول في شرقي بلاد الأناضول، فطاف على كثير من مدائنها وقراها. ومكث في أرضروم نحو خمسة عشر يوما.

كان مجلس الليلة الأولى خليطا عجيبا من الطلاب والتجار وبعض ضباط الجيش. وكانت القلوب تهفو إلى سماع كلمات الضيف، عساها

تكشف ما يحمل من أسرار، وكانت الأبصار تتملى ملامح وجهه الهادئ.. الكل ينتظر ما تنطق به شفتاه! كان فتح الله مشدوه البصر هائج الوجدان، فقد بهره منظر هذا الرجل قبل أن يتكلم!

تحدث الرجل بكلمات قلائل عن أستاذه بديع الزمان، ثم أخرج من جيبه ورقات من "رسائل النور"، وشرع يقرأ من رسالة "الخطوات الست"، وكل الآذان له مصغية، فكانت تلك مائدة الليلة الأولى. وفي الليلة الثانية ألقى عليهم وَمَضَاتٍ من "الشعاع الخامس"..

أما رسالة "الخطوات الست"، أو "الهجمات الست"، فقد كانت بيانا جهاديا من بديع الزمان النورسي، وتوعيةً إيمانيةً، وخطةً دفاعية شعبية، في مواجهة الإنجليز، عشيةَ احتلالهم لمدينة إسطنبول، خطوات معنوية تحبط مقولات الحرب الإعلامية والنفسية التي بثها الاحتلال في الناس، وتحيي روح المقاومة فيهم. أما "الشعاع الخامس" فقد كان فصلا من كتاب "الشعاعات".. فيه تفسير رمزي لأشراط الساعة، وبيانٌ لمقاربة دجاجلة العصر لخصال الدجال الأكبر، وأن مآل الدجل دائماً هو الخسران المبين!.. كانت الشعاعات تشرق بتجديد الحياة، وتفتح أبواب الأمل في وجه ملايين المستضعفين!

بعض الطلاب الذين حضروا المجلس الأول، كانت متون التعليم العتيق الميتة التي عكفوا عليها زمنا، قد أماتت قلوبهم وأعمت بصائرهم، فلم يستطيعوا إبصار النور المتدفق من شفتي هذا الرجل الغريب. وزادهم عَمًى بساطةُ هندامه القديم، الذي لا يشبه هندام العلماء، وتبرؤه من كل حول وقوة، على غير عادة كثير من شيوخ العلم والتصوف في ذلك الزمن العقيم! فجعلوا يقاطعونه بالاعتراض على هذه الكلمة والإنكار

لتلك القضية، محاولين الانصراف بالدرس إلى ظلمات الجدل البيزنطي؛ فصرف الله قلوبهم عن مشاهدة شلالات النور التي تتدفق ساكنةً بلا صَخَبٍ، من فم هذا الرجل الزاهد الفقير.

بيد أن فتح الله كان منذ الليلة الأولى قد انجذب كلية إلى هذا الرجل العظيم، وسحرته الكلمات القلائل التي تحدث بها، أو التي قرأها عليهم من رسائل النور. فشعر وكأنه قد خرج من برزخ الحيرة إلى منزلة اليقين، وصاحت روحه الولهى: الآن وجدت الطريق، الآن وجدت نفسي.. الآن وجدت النور الذي كنت أبحث عنه ما بين شيوخ التكايا والدراويش، ولكن بلا جدوى!

كان مظفر أرسلان رجلا فقيراً. كان معطفه باليا جدا، تتخلله مِزَقٌ صغيرة في الحواشي والمرفقين. أما عندما جلس فقد بدت للجميع رُقَعُ سرواله المخيطة على ركبتيه! كل لباسه كان يوحي بأنه استُعمل لسنوات عديدة، ولُبِسَ ثم لُبِسَ حتى تمزقت أطرافه وثناياه! والعجيب أنه -رغم هذا وذاك- كانت ثيابه نظيفة بفقرها، أنيقة بِمِزَقِهَا وَرُقَعِهَا! فهي رقع بلا تصنع، وأناقة بلا كلفة! وبين هذه وتلك هلك كثير من الزهاد وكثير من المتكبرين! رجل بسيط حقا كل البساطة، لكنه عميق الوجد، ينظر المرء البصير إلى عينيه الهادئتين، فيكتشف أنهما لؤلؤتان تلمعان في عمق المحيط! كان فتح الله ينظر إليه، فيشاهد فيه بوضوح أثر السفر، نعم ولكن، هو سفر أعلى من سفر... سفر في غير قطع المسافات والأميال، ولا في اجتياز فراسخ المكان، وإنما هو سفر في اختراق طبقات العصور وبرزخ الزمان. وكأنَّ مُظَفَّراً رجلٌ حَلَّ بالأرض قادما من عصر الصحابة يحمل بشائر الفتح المبين، وينادي في جموع الشباب: "ألاَ يَا خَيْلَ اللهِ ارْكَبِي..!"

ومن ذا أشد من فتح الله حُبّاً لأصحاب رسول الله؟ وهذا مظفر يأتيه الليلةَ بقبس من حالهم ومقامهم العظيم.

كان مُظَفَّرٌ أَرْسَلاَنُ إذا شرع في الحديث عن بوارق النور، انساب صوته الهادئ برفق، وهو يحدو قافلة المحبين إلى زمن السلام، وأشرقت عيناه بشعاع روحاني عظيم حتى إنهما لتكادان تضيئان المكان. كان فتح الله ينظر إليه بتركيز شديد، وحضور كلي عجيب، فينسى ظلمات عصره الكئيب لِمَا يجد من وهج النور في عينيه المشرقتين، ولِمَا يرى في هيئته من شَبَهٍ بأطياف الصدِّيقين..! كان مظفرٌ يرحل في حديثه إلى حيث يَصِفُ حتى إن المستمعين ليرونه هناك! عَجَباً! بل إنهم ليشمون مسك الزمان النبوي يملأ المكان، ويجدون بأنوفهم دخان معسكر الصحابة إذا نزلوا بوادٍ بعد الرواح، ويشعرون بحَرّ غبارهم إذا ركضت الخيول عند الصباح! ولقد رأى فتحُ الله -وليس من سمع كمن رأى- جيوشَ الفتح تحاصر عاصمةَ الروم القديمة! وإن شَعره ليقشعر خشوعاً لما رأى أن صاحبه مُظَفَّراً كان هناك! ولعله ربط حصانه بأحد مداخل المدينة، وعلق سيفه بغصن شجرة، ثم دخل أرضرومَ على حين غفلة من أهلها.. عجباً!

وهناك عزم فتح الله على أن يرافق مظفراً إلى مكانه، وأن يرحل معه إلى زمانه!.. وشعر الفتى بأريج الهجرة يملأ رئتيه، فتنفس الصعداء.. ثم بكى!

وبلغ الخبر إلى شيوخ التعليم العتيق بأرضروم! وبالخصوص إلى سعدي أفندي حفيد الإمام الألوارلي، والأستاذ عثمان بكتاش. وكان بعضهم على غير وفاق مع الأستاذ بديع الزمان النورسي ودعوته؛ إما لجهل بحقيقته أو لشعورهم بحرج المنافسة على الأتباع، وما هو لهم في ذلك بخصيم. ومن ثم بذل الشيخان كل الجهد لصد هؤلاء الشباب

عن الانخراط في مسلك النور! ورَهَّبَاهُمْ من مغبة اتباع رجل تطارده الحكومة، وخَوَّفَاهُمْ من قراءة كتبه ونشر رسائله؛ لِمَا يجره ذلك عليهم من خطر التعرض للاعتقال والتشريد. أما الأستاذ بكتاش فقد استعظم أن يفقد تلميذه الذكي محمدا فتح الله، فبذل ضغطا غير عادي على طالبه؛ عساه يترك صحبة النور. إلا أن الفتى -وهو الذي يحب أستاذه بكتاش كامل المحبة، ويبذل في حقه كل الاحترام والتقدير- لم يستطع أن يستجيب لطلبه هذا، ولا اقتنع بشيء من بياناته وتفسيراته في تحذيره من السير على أثر بديع الزمان النورسي.

وإنما مَثَلُ الفتى كرجل أوغل في سفر بعيد، فاشتد به العطش في لفح الرمضاء ومسالك الصحراء، حتى إذا أيقن بالهلاك جاء الله بالفرج؛ فأشرف على واحة خضراء ذات مياه باردة وظلال! فأي بيان ثقيل يستطيع -بعد ذلك- أن يصده عن التعريج السريع على منابع المياه؟

لقد شاهد فتح الله ببصيرته الصافية ووجدانه الوهاج، تجليات النور على طلاب النور.. فما كان منه إلا أن انجذب إلى لهيب الكوكب الدري، ولم يزل يدور بِفَلَكِهِ، ويكتوي بناره حتى احترق! والاحتراق في مسلك الروح شرط الاختراق؛ وإلا ظل السالك يكدح محجوبا دون سماء الوصول!

كان الفتى يبصر دروس الأستاذ النورسي، ويرى بصماته التربوية حركة حية، تنبض بالحياة في شرايين طلابه وإخوانه. فأنى له الانصراف -بعد ذلك- إلى تكايا وزوايا قضى عليها الدهر بالموات؟ كان مشهد مظفر أرسلان وهو يصلي، يستولي على قلب فتح الله وكيانه. فبمجرد ما يُحْرِمُ الرجل بالتكبير للصلاة؛ تنفجر غدران المواجيد من قلبه، ويتدفق كوثرها الصافي على فمه ولسانه، ثم تمضي إلى ربها هادئة، بعمق وخشوع لم

يشهد الفتى لهما مثيلا. فقد بليت فريضة الصلاة في ذلك الزمن العصيب، وأصبحت حركات سريعة، مضطربة الوقع، فارغة المعنى، أبعد عن أن تكون معراجا يصل العبد بالسماء.. لقد اتسخت المقاصد وتعفنت، فأُسْدِلَتِ الْحُجُبُ وغُلِّقَتِ الأبواب، ثم تساقط الذباب على التراب!

أما البقال "زكي أفندي" فقد كان إذا رفع يديه للدعاء، انتابه خوفُ مَنْ يَرَى أمامه عذاب جهنم ملتهبا، وكأنه يشاهد من منازل الآخرة ما يملأ قلبه رَهَباً فتئن الكلمات في فمه، وترتجف أجنحته ارتجافا حتى لا يكاد يجلس إلى جانبه أحد -وهو مستغرق في هذه الحال- إلا تَمَلَّكَهُ الخوفُ والرَّهَبُ!

وانطلق فتح الله راكبا مع خيول الفاتحين..

ومن ثم لم يزل الفتى يزور مُظفَّرًا أرْسْلاَنَ يوميا في بيته المؤقت بأرضروم، يتزود من أقواله وأحواله، حتى حان موعد الرحيل. وعند الوداع وقف فتح الله حزينا على رصيف محطة القطار، مع خمسة من طلاب النور، ينظرون بعيون الإشفاق والأمل، إلى رجل حط بجناحيه على شرفات قلوبهم، فأوقد بها قناديل المحبة ثم طار!

## رسالة غير عادية!

ليس شيء أفيد للقلوب من التواصل الروحي، الذي يطرد الوحشة، ويؤنس الوجدان، وينشط القلب في سيره إلى الله! وكلما ضعف التواصل وقَلَّ خفتت المواجيد وبهتت الأشواق، فتعثَّر السير، وخِيفَ على السالك الانقطاع! ولذلك كان لمجالس الأرواح أثر الزاد على قافلة المحبين، تُنشط السير وتطوي المسافات إلى ديار الحبيب. ومن هنا لم يكن بديع

الزمان يهمل طلابه مهما كثروا وانتشروا، سواء منهم من رآه ومن لم يره. فقد كانت عيون الروح تمتد أشعتها بين الأحبة، وتتجلى الأطياف بعضها لبعض، على آلاف الأميال، فتتعانق القلوب ويحصل المقصود.

كان فتح الله في صحبة إخوانه بمجلس الذكر، عندما زف إليه أحدهم خبر ورود رسالة من الأستاذ بديع الزمان النورسي، تخص مجلس طلاب النور بأرضروم، أي هذه المجموعة الصغيرة نفسها، التي تجلس متخفية تحت جناح الليل بدكان صغير! كان الفرح والسرور قد هز أغصان جميع الطلاب طربا، أما فتح الله فقد شعر بقرب شديد من بديع الزمان غير معهود، وانتصبت معالم الطريق أمام عينيه واضحة، ترسم له مسلك أستاذه الحكيم بين عواصف هذا الزمن! وقُرئت الرسالة على الجميع، فخضعت لها الأعناق وانتصبت لها القلوب، تتلقى عبارتها كلمة كلمة، في صمت شامل يخفي ضجيج البحر المجذوب، الضارب بموجه العالي على شواطئ الصدور.

كانت مفاجأة غير عادية لجميع الجلساء، لكن مفاجأة الفتى كانت ذات طبقة أعلى.. فعندما اختُتمت الرسالة بالسلام على من بلغ خبرُه إلى الأستاذ النورسي، وقع ذكر اسم فتح الله على قلبه الْمَشُوقِ، وقوعَ البرق على الشجر، فجعل النور اللاهب يرتفع من أغصان قلبه حتى أضاء كل زوايا المكان! ولم يزل فتح الله يعيش لحظات ألمه اللذيذ، سروراً لم تكد روحه تطيق شدة اشتعاله حتى إنه لا يذكر أنه سُرَّ في حياته إلى هذه الدرجة إلا بضع مرات! وأي شيء أسعد لقلبه المشوق بالنور من كون مجدد الدين ببلاد الأناضول قد سلم عليه؟ وإن في ذلك ما فيه من الدلالات والإشارات التي كان قلبه في حاجة ماسة إليها. ومهما طال

الزمن وتناسخت الأيام، فلن ينسى أبداً سلامَ بديعِ الزمان: "وبلغوا سلامي إلى فتح الله!..."

فهذا باب الإذن قد انفتح بين يديك يا فتى فانطلق!

## مَواجِعُ البِدايات..

في أرضروم هناك عادة سنوية، يختم فيها القرآن ألف مرة ومرة! ثم يكون الدعاء الشامل لكل تلك الختمات بمسجد جامع من مساجد المدينة. يتعهد الآلاف من الناس تطوعا بتلاوة ما يستطيعون من قرآن، فيبيتون الليل كله أو بعضه، يرتلون ما نذروه لله من تلاوة، حتى تمام ألف ختمة وختمة! فإذا صلى الإمام الفجر، قرأ دعاء الختم الجامع، وانصرف الناس. كانت تلك وسيلة من وسائل مواجهة الزحف الإلحادي الكاسر الذي حظر على الناس تلاوة القرآن لسنوات عديدة، ومنع حناجر الطير المتبول بحب الرسول، من التغريد بليل أو نهار..!

في تلك الليلة بكَّر فتحُ الله بالذهاب إلى المسجد الجامع، لحضور دعاء الختم، فهذه السنة وافق الختمُ فيها ليلةَ النصف من شعبان. وفي مثل هذه الليالي تغص مساجد أرضروم بالناس حتى تضيق بالمصلين، فلا يكاد أحد يسجد إلا على ظهر صاحبه! وأما من لم يحضر قبل العِشاء، فإنه لن يجد له مكانا داخل المسجد في صلاة الفجر!

استطاع الفتى أن يصل إلى مقصورة الاحتفال وسط المسجد، وهناك صلى العشاء مع الجماعة. وفي تلك الأجواء الروحية الغامرة، بدأت روابي قلبه تهتز وتعلو..! كانت الأشجار تنبت من تحت الأرض في

سرعة غريبة، بقلةً، ففسيلةً، فشجيرةً، فدوحةً عظيمة! ولم تزل الأغصان تمتد نحن السماء عاليةً عاليةً، حتى إنها لتكاد تخرق حجب الغمام! كان فتح الله قد انجذب -من حيث لا يدري- إلى عالم الملكوت العُلوي، رافعاً يديه إلى السماء على هَيئة الابتهال، يدعو ويدعو، ثم يدعو.. كانت المواجيد التي اتقدت بقلبه قد فَتَّقَتْ تربتَهُ بغابة أشجار عالية، يضربها الشوق ببارق إعصاره، حتى ينكشف فضاءُ الليل عن بشائرَ من لهب، فيرى الفتى فيها ما يرى ويهتز من طَرَبِهِ أَلَماً! كانت الدموع السخينة تجرف ما بقي بعينيه من إبصار حسي لعالم الأشياء والأشباح، لكنهما انفتحتا على مشاهدة عالم الأرواح.. ولقد فني تلك الليلة عما حوله من ضجيج وعجيج، وما بقي طيلتَها إلا بالله!

وهناك من معراجه الروحي، شاهد كتائب طلاب النور قد سبقت إلى الثغور، فتدفق جدولُ لسانه بدعوات لم يتغير صفاؤها، ولم يَبْلَ بهاؤها: رب اجعلني منهم! اجعلني بين سراياهم، أسير كما ساروا بقناديل النور حتى ألقاك! أدخلني من باب الخدمة، واقبلني عبداً! ها أنا ذا قد ذقت، ورأيت؛ فاجعل نعمتك عليَّ تدوم! أعوذ بك إلهي أن أدخل من باب ثم أخرج محروما من باب! ثبِّت قلبي الراحل في النار ببرد وسلام! واجعل روحي وَقْفاً أبديا لك وحدك، لك وحدك!

.....

ولم يزل يرفع يديه مبتهلا، والريح تعصف بالأشجار، حتى ما بقي بأغصانها من ورقة! ثم انهال المطر يغسل ما بقي بين خمائلها العارية من أدران وفتح الله يدعو ويبكي ثم يبكي!

وانفجر بالمئذنة تكبيرٌ رفيع الصدى، ومضى يتردد في برزخ ما بين

ملكوت الروح ومدائن الطين.. وذُهل فتح الله لأذان الفجر! فقد غاب بزمن الروح عن زمن الأرض، حتى أدركه الصباح، فسكت عن البكاء المباح!

بات الفتى يدعو الليل كله، وما نام لحظة، بل ولا طرفة عين! وكيف ينام وقد حَلَّقَ قلبه المتبول من أعلى شرفات مقام اليقظة؟ كانت ليلة يتيمة في حياته، لا يذكر أنه عاش مثلها قط، وكانت مفرق طريق في مسيرةِ دُنْيَاهُ الصغيرة، ومحطة انطلاق في رحلته الكبرى.

قبل أداء صلاة الصبح، صعد الإمام "صادق أفندي" إلى كرسي الوعظ، فكانت له كلمات رقيقة هيجت الأحاسيس والمشاعر، وبكى فأبكى من ليس يبكي! كان "صادق أفندي" رجلا متيما بحب الرسول ρ إلى درجة لا توصف! فكلما قال: "سيدنا، أو حبيبنا، محمد ρ"؛ توقف عن متابعة الدرس، وامتصَّ شفتيه بعمق، وكأنما هو يرتشف مشروبا لذيذًا، ثم قال وهو يمط الكلمات مَطًّا: "محمد..! ما أحلاها!"

والشعب التركي كله شعب متبول بحب الرسول ρ، وله في حقه -عليه الصلاة والسلام- ملاحم من الأشواق والأشجان، لو وزعت على أهل الأرض جميعا لوسعتهم محبةً وسلاما! قوم توارثوا حبا سُنِّياً صادق الوجد، في حق آل البيت والصحابة أجمعين! مواجيد إيمانية حَرَّى، زادتها مصادرة الحب والسلام من قلوب المستضعفين -في زمن الجبر والجبروت- ناراً واشتعالاً! فما من أحد يتسلق تلال القلب فيحرك أغصان الأشجار إلا أومض البرقُ في غسق الليل، وأرعدت الآفاق بغزير الأمطار!

وبكى فتح الله مع وعظ الشيخ كثيرًا.. وانخرط مرة أخرى في ترديد دعاء الليلة، واستدرار شعاع النور. حتى إذا فرغ الناس من صلاة الصبح،

ودعاء ختم القرآن؛ جعل الفتى يضمد آلام مفاصله، ويحاول حمل أطرافه من فوق الأرض عضوا عضوا، حتى إذا استقام واقفا، غادر المسجد مع شروق الشمس.

كان حاتم -صديقُ فتح الله، وزميلُه في الدراسة وفي صحبة مجالس النور- واقفاً بباب المسجد بعد الصلاة، ينظر إلى وجوه المصلين بتفرس، وكأنما هو يَعُدُّ الخارجين من المسجد عدّاً، حتى إذا وقعت عيناه على صديقه، أسرع نحوه فألقى على وجهه قميص البشرى! قال فتح الله: ما شأنك يا صاح؟ فأجاب صاحبه: هذه الليلة رأيت الأستاذ بديع الزمان النورسي في المنام، رأيته في شأن يخصك أنت، لقد كان يرسل إليك الرسالة التي هي في "السيرة الذاتية"، ومعها جُرَّة مملوءة بالجوز. نعم هكذا، وانتهت الرؤيا!

كان العاشق الولهان يضرب في متاهات الصحراء، سيراً نحو ديار الحبيب! كان يدري أن مسالك البيداء خطيرة، فالموت يسكن جبالها ورمالها! لكن العاشق مملوك لجنون الشوق العاصف! فلا سلطان له على منع جوارحه من ركوب السفر المجنون! كانت حواشي شفتيه قد تمزقت بلهيب القيظ، وكان حلقه قد جف من العطش، وانطوت ثنايا بطنه من الجوع، ثم تطايرت أطراف ثيابه مِزَقاً في الريح! ولم تزل رجلاه تَرَجْرَجَانِ بين تلال الرمال، حتى إذا هب نسيم الأحبة ندي الأريج، يبشر الفتى المتبول بقرب الوصول، اشرأبت عنقه من خلف التلال، وما أن رأى أول خيام الأحبة حتى خر على الأرض فرحا!

ألم تكن دموع فتح الله تجري الليل كله شوقا والتياعا؟ فها هو ذا الآن يتلقى بشرى الوصول صباحا! فينهار ما بقي في قلبه من تلال الصبر على

نار الجوى، فيبكي مرة أخرى! ولكن دموع السرور لها أثر الضماد على الفؤاد، فأبشري يا جوانح الروح بسكينة الموافقات وجمال الكرامات!

وجعل الفتى يزمزم بكلمات وكأنما هو يهذي.. يردد ما كان يقوله الإمام الألوارلي من الشعر، كلما غمرته الألطاف الإلهية بالكرم والعطاء! فكيف بعبد لم يزل في بدء الطريق، ثم تفاجئه كرامات المقامات العالية؟ أنَّى له وأنَّى أن تتحمل حَدَقَتَاهُ العليلتان النظر إلى قرص الشمس؟

هُوَ أَمْرٌ فَـوْقَ حَدِّي وَأَنَـا عَبْـ ـدٌ ضَعِيفٌ لَسْتُ أَهْلاً للكَرَمْ!

فَلِمَاذَا كُلُّ هَذَا اللُّطْفُ وَالإِحْـ ـسَـانُ يَرْمِينِي بِأَمْطَـارِ النِّعَمْ؟

وتساءل فتح الله: عَلاَمَ تدل رموز هذه الرؤيا يا ترى؟ أما مشاهدة الجوز عند أرباب التعبير فيفسرونها بالسفر. أما رسالةٌ من "السيرة الذاتية" للنورسي فلها قصة أخرى، وإن لها لتعبيراً بمقام آتٍ.. ولكن ما دلالة المشهد كله؟ وفي هذه الليلة بالذات، التي بات فيها الفتى يتقلب على جمر قلبه، ويستحم بلهيب دموعه!

لكن الشيء الذي رسخ في قلبه رسوخا، هو أن هذه الرؤيا، مع ما سبقها من إشارات، كتلقيه السلام من بديع الزمان بالاسم، وحالته الروحية ليلة أمس، كل ذلك دليل واضح على أنه مأذون له في اتخاذ طرق النور مسلكا! كان هذا المعنى قد طرق قلبه من قبل، لكن أحوال ليلة أمس، وموافقة رؤيا حاتم، جعلته يشعر بأنه الآن ليس مأذونا فحسب، بل هو طالب نور مأمور! فقد انكشفت له الأستار عن الأسرار! وتدفقت القلوب على القلوب، فَلِنَبْضِ الشيخ بصدر مريده وَجَعٌ واحدٌ! وما كان لمن ابتلي بمكاشفة المحبة أن يخذل خليله، وإلا كان من الهالكين!

أَخِلاَّيَ أَنْتُمْ أَحْسَنَ الدَّهْرُ أَمْ أَسَا فَكُونُوا كَمَا شِئْتُمْ أَنَا ذَلِكَ الْخِلُّ!

# طالب نور

أن تكون طالب نور في زمن الظلمات، يعني أنك قد انخرطت في جندية الروح، وأنك قد وهبتَ قلبك لمشكاة الفقراء، يتخذونه مصباحاً تشتعل فتيلتُه من شريان دمك!.. ومن يدري؟ فربما تحمل فوق رأسك خبزاً تأكل الطير منه! وتُذْكِي الشمسُ مواجيدَك الْحَرَّى، فتمسي قمراً يرحل نحو أعالي الأفلاك!

فأن تكون طالب نور، يعني أنك تخرج في عاصفة الليل وحدك، وتواجه مخالب البرد القارس بصدر عَارٍ..! تسعى بين الدروب الخالية، لتوزع بعض النبض الساخن على قلوب قلَّصها البرد، فقبعت خلف الأكواخ المرتجفة! فلا يحجبك عن قناصة قراصنة الليل إلا قدر الله!

آلاف العلماء هناك قَضَوْا صَلْباً أو شنقاً على أعمدة النور! وباتوا ليالي شتى أَرَاجِيحَ تهدهدها الريح بمرثية الأعراس!.. ولقد شهدت عمائمُهم الدامية على كسوف الشمس، في زمنٍ حَجَبَ الشيطان به شروقَ الروح بوجه كالح، وكانت بنادقه تحاصر كل مآذن الوطن، وتصادر أشواق الفقراء، وتحظر كل ورق موشوم بدموع البدر، أو بصور جذلى لعصافير الفجر، وحناجر الطير وهي ترتل في الليل الساجي مواجعَها!

حدثني راوي الأشجان قال:

عندما رحل النورسي لم يترك سوى سلةٍ صغيرة، فيها لباسٌ بالٍ، وساعة جَيْبٍ، كان يَعُدُّ بها أشجان الليل، ورسائل أرسلها إلى طيف كان يراه من على بُعْدِ خمسين سنة!.. أما فتح الله فقد أرسل له كل دموع الدنيا وجميع جراح التاريخ، فقال له: قد آذناك يا فتح الله فقم!

.....

حُذَيْفَةُ بْنُ اليَمَانِ صَحَابِيٌّ من نوعٍ آخر.. كان يسأل نبيَّ الله عن الشر مخافةَ أن يدركه! وللشر في ملحمة العصر أخبار من لهب لَمّا سألتُ عنها الراوي زادتني رهقاً! أما فتح الله فلما ألقى إليه النورسي برسالة الأحزان بكى، ثم استل لها سيفَ القرآن! عندما كان يقرأ مواجعَها سِرّاً، كان يشاهد مصرعَ أشجار الدُّلْبِ في كل مكان! ويرى فراخَ النور وهي تحترق في جحيم الظلمات! كانت كلمات النورسي قصصاً من أمثالٍ وعِبَر، لكن فتح الله كان يفتح أقفال حقائقها؛ فيتلقى جمر مآتمها بصدر عارٍ، ويبكي ثم يبكي!

هذا زَمَنُكَ يا فتحَ الله!.. هذا قَدَرُكَ! فاحمل عصا أشجانك وارحل إلى موعد طُورِك! فقد جئتَ على قَدَرٍ، ليس لكَ خيار.. وما كنتَ مُرِيداً قط ولكنك أنتَ مُرَادٌ..! ما كان لمن آذَنَهُ وهجُ النور اللافحِ أن يختار..!

نظر فتحُ الله إلى حرائق زمنه المنكوب، فرأى أدخنةَ الشيطان تسد أفق الطريق إلى موعده! لكنه حمل على كتفه رشاش دموعه ودخل في اللهيب!

حدثني راوي النور عن ملحمة الحزن فقال:

كان ربيع سنة ١٩٢٤م فصلاً من غير زهور، فقد احترقت فيه كل حدائق تركيا، واحتملت أنهارُها رماداً مسموماً نحو جميع بلاد الإسلام.. كانت تلك سَنَةَ النكبة الكبرى، حيث تم الإعلان عن القطيعة الدامية مع تاريخ الأمة الذي كان، ودخول بلاد الأناضول زمن النار والإعصار! فصار لقصص النسوة الباكيات خلف الأستار ألف حكاية وحكاية!

## حكاية المؤذن الحزين

الشيخ محمد أفندي مؤذن بمسجد صغير، ومدرس لكتاب الله في محرابه الدافئ.. عندما طار الشَّرَرُ بخبر عزل السلطان، وإلغاء خلافة الإسلام، نظر إلى تلاميذه الصغار ثم بكى..! كان يرى في عيونهم الصافية شريطَ الملحمة الكبرى، تهب عواصفها في غسق الليل القادم، وأنهار الدم تجري من بين شرايينهم، فتلتهب جميع مصاحفهم بالنار! قَبَّلَهُمْ واحداً واحداً، وأوصاهم بمسجده خيراً ثم خرج ولم يعد!

وما هي إلا أيام حتى صدر قانون حظر تدريس الدين بتركيا، سلاسلَ تكبل أجنحة الطير الشادي فوق مآذن إسطنبول.. وتخنق بوحشية حناجر فراخ، كانت تثغو ببعض حروف القرآن، فَغُلِّقَتْ دونها كل نوافذ الروح، وماتت آلاف خلايا النحل خنقاً، أو غرقاً في عسلها المرِّ!

عندما توصل المؤذن محمد في بيته الصغير، بقانون إجبار القَيِّمِينَ على المساجد، من أئمة ومؤذنين، على ارتداء الزي الأوربي، ووجوب رفع الأذان باللغة التركية، وحظر اللسان العربي في خطب الجمعة؛ أدرك أن إذن الهجرة قد ضرب برقه المرعد في أفق الغيم الأسود! وقبل أن تبدأ حفلة رقص ماجنة، مختلطة بين النساء والرجال، كان قد أُعْلِنَ عنها في إسطنبول، لأول مرة في تاريخ تركيا؛ حمل المؤذن محمد متاعَه القليل، ثم هاجر سِرّاً ناحيةَ الشام!

## حكاية الواعظ السجين!

أما الشيخ "بَيْرَامُ الواعظ" فقد وجد نفسه فجأة بغير وظيفة! فلا هو قادر على اعتلاء منبر الوعظ والإرشاد، ولا هو يستطيع ممارسة مهنة التوثيق

الشرعي لعقود الزواج والطلاق، أو الفصل في قسمة المواريث، التي كان يزاولها بمكتبه الصغير كل مساء! فقد ألغت الدولة الحديثة وزارةَ الأوقاف والشؤون الإسلامية، وجميع المحاكم الشرعية، وصدرت القوانين تمنع نظام الإرث الشرعي، وتجيز زواج السِّفَاحِ على الطريقة الغربية، بلا مَهْرٍ، ولا ولي، ولا شهود..! وصار للمرأة الحق في أن تزوج نفسها بنفسها، ولو حتى من يهودي أو نصراني! كما ألغيت جميع القوانين الشرعية واستبدلت بها القوانين السويسرية والإيطالية! وطُرِدَتْ عبارةُ: "الإسلامُ دينُ الدولةِ الرسمي" من دستور الدولة! وحُذِفَ اسمُ الله ﷻ من قَسَمِ رجال الدولة، وأصحاب المهن المتخصصة، وسائر الموظفين السامين!

وبقي الشيخ "بَيْرَامُ الواعظ" حَبِيسَ منزله لمدة اثنتي عشرة سنة يكرر ختمات القرآن سِرّاً، لا يخرج من بيته، ولا يطل حتى برأسه من النافذة حَرَجاً من قانون القبعات، الذي أجبر الناس على لبس القبعة الغربية السوداء. وكيف يطيق الشيخ نزع عمامته العظمى وارتداء قبعة أهل الذمة؟ ولقد فر من استطاع الفرار من العلماء خارج الحدود، واستشهد الآلاف منهم شنقاً أو رمياً بالرصاص، وسط الشوارع والساحات العمومية! لكن بيرام لم يستطع الفرار ببناته الخمس خشيةَ قراصنة الأعراض هنا أو هناك! ففضل البقاء بسجنه الاختياري إلى الأبد..! ولكم باتت أسرته على الطوى، إذ لم يكن اشتغال بناته وزوجته المريضة بطرز السُّتُرِ والْخُمُرِ عمالةً مطلوبةً على الدوام. كيف وها الخِمَارُ قد صار محظوراً بموجب قانون النار؟ وما كان للشيخ أن يخطو خطوة واحدة خارج باب بيته البئيس بغير الرداء الغربي المفروض. فلم يزل قناصة الغدر يلتقطون ببنادقهم الظالمة، رأس كل مؤذن أو إمام، نسي ارتداء قبعته في طريقه إلى المسجد! وتدفقت

شوارع المدن التركية بدماء المستضعفين زهاء ستين سنة! أما الشيخ بيرام فلم يخرج من بيته، إلى أن انفتحت دفة بابه القديم عن جنازته الحزينة!

## حكاية يوسف الخطاط

كان "يوسف أوزجان" يفتخر بسند شيوخه العالي في الخط العربي، ويعلق على جدار مكتبه الجميل شهادةَ إجازته العتيقة، التي أجازه بها شيخ الخطاطين في ديوان السلاطين! لم يكن يوسف يتخذ مهنةَ الخِطَاطَةِ مجرد مصدر للرزق فقط، بل كان قبل ذلك يُغَذِّي رُوحَهُ بها، ويستظل بالدخول تحت خمائلها، ويتمتع بالسياحة بين أقواس الحروف المزخرفة بجمال الإيمان. كان إذا شرع في تطريز الكلمات أحرم بمحراب الحروف، وغاب عما حواليه مستجيباً لنداء الروح! وما كان أَغْضَبَ له من زبون بليد، يُكلمه وهو غارق في إبداع لوحة، أو منهمك في تخطيط عنوان كتاب!

عندما صدر قانون حظر استعمال الحرف العربي في كل ربوع البلاد، وتم فرض الحرف اللاتيني على الناس بالقوة؛ صار تداول الكتب والوثائق المكتوبة بالخط العربي لا يقع إلا خلسة وتهريباً! وبيعت أطنان من الكتب والمخطوطات للأوروبيين بأبخس الأثمان! وأُرْسِلَتْ أطنانٌ أخرى إلى مصانع الورق! وبين عشية وضحاها صارت جميع الصحف تُطبع بالحرف اللاتيني، وكذلك جميع اللوحات الإشهارية والتجارية، وأسماء الأزقة والشوارع! ووُضِعَ الحظر الصارم على تدريس اللغة العربية وكتبها، ثم تَمَّ تحريم قراءة القرآن الكريم في أي مكان! وانتشر رجال الدولة يتصيدون المستضعفين المستخفين بقراءة كتاب الله تحت الأقباء، فيقودونهم مجرجرين بالأغلال إلى غياهب السجون!

وخضع جميع الناس لقرار حظر الحرف العربي، تحت سيوف النار، إلا الخطاط "يوسف أوزجان"! فقد أعلن تمرده على القرار، واستمر يطرز لوحاته علناً، ولو لم يجد لها زبوناً! لقد كان الانقطاع عن التخطيط بالنسبة إليه انتحاراً روحياً، وموتاً وجدانياً أليماً! وهو لذلك ربما استغرقَ أياماً في تطريزِ آيةٍ، أو عبارة ذِكْرٍ، أو تسبيحٍ، إذ ينقش لوحته بالألوان والزخارف الدقيقة، فيجعلها تعبر عن أشواقها الروحية، وأشجانها الوجدانية؛ بما يهيج المشاهد الذواق على البكاء العميق، حتى إذا أنهاها عرضها على المارة أمام مكتبه أياماً، فيمر عليها الناس وهم ينظرون إليها من جانب خفي؛ خوفاً من رقابة الشيطان! ينظرون ثم يعجبون من مغامرات هذا الخطاط المجنون! حتى إذا أشبع الرجل قلبَه من معرضها الاحتفالي، حملها إلى أحد مساجد المدينة، وعلقها على صدر جداره العالي!

ولم يدم حال يوسف الخطاط هكذا طويلا، إذ لم تمض سوى بضعة أشهر، حتى هاجمه رجال الشرطة في مكتبه، فدخلوا عليه، وقد صوب أحدهم مسدسه نحو هامته العالية، وخلال بضع ثوان كان الخطاط مقيداً بأغلال من حديد!

وفي السجن، كان يوسف يعتلي ظهر أحد السجناء الأقوياء، ويطرز على أعلى الجدار بقطعة فحم متين: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ؟﴾(يوسف: ٣٩)..!

## حكاية المعلم المختلف

"مصطفى أرسلان" معلم قروي، كان قد تخرج من مدرسة المعلمين، التي أُسِّسَتْ خصيصاً لتخريج مدرسين ملاحدة! آلاف من رجال التعليم

انطلقوا زحفاً على طول البلاد وعرضها، يلقنون الأطفال والشباب المراهقين نظريات التطور والارتقاء، والفلسفات المادية الملحدة، وتصورات الزندقة، والإباحية الخلقية لتمزيق النسيج الديني الاجتماعي في البلاد! فانتشروا في المجتمع التركي كله، انطلاقاً من قطاعه الأوروبي إلى أقصى شرق الأناضول مع التركيز على البوادي والقرى الصغيرة، حيث ما يزال الناس متشبثين بعقائدهم وأخلاقهم الإسلامية.

وشرعت المدارس في تعليم نظريات الإلحاد رسميا على كل المستويات، بل تم استيراد خبراء من روسيا الشيوعية لذلك! وجُعل يومُ الأحد عطلةً مفروضةً على الناس بدل الجمعة.. ثم انطلقت في البلاد حركة ثقافية واسعة، وموجة إعلامية قوية، ترفع راية الإلحاد ثقافةً للعصر، وموضة للمثقفين الجدد!

لكن المعلم "مصطفى أرسلان" كان من طراز آخر، فقد طبعه أبوه الذي كان مجرد فلاح بسيط بشرق الأناضول، على حب الدين وشيوخه؛ ومن ثم فرغم تخرجه من مدارس المعلمين الحديثة، وخضوعه لعمليات "غسل الدماغ"؛ فإنه لم يفقد ذاكرة روحه، ولم يتأثر إيمانه بالله شيئاً، بل ازداد يقينا بحقائق الدين، وبات يتتبع حركة التغيير العلماني بعين نقدية! ولم يزل يبحث عن سر غلبة الطابع اللاّديني على مظاهرها؟

وتسابقت الصحف الجديدة في تمجيد الزندقة ورموزها، ونشر صور الخلاعة، وأخلاق الرذيلة والسقوط! وفي هذه المرحلة تم الإعلان عن مسابقة ملكة الجمال بين المسلمات، لأول مرة في تاريخ العالم الإسلامي!

وتم تخفيض عدد موظفي المساجد من أكثر من ألفي ومائة قَيِّمٍ إلى

أقل من مائتين فقط! وفي إسطنبول وحدها تم إغلاق تسعين مسجداً! أما المدارس الإسلامية والزوايا والتكايا، فقد أُغلقت عن آخرها، وصُودِرَتْ جميعُ ممتلكاتها على طول البلاد وعرضها! وتم تحويل مسجد "آيا صوفيا" الشهير إلى متحف، ومسجد الفاتح الأعظم إلى مستودع! بينما اتُّخذت مساجدُ أخرى اصطبلات لخيول الشرطة، أو خمارات!

قال لي راوي الأشجان:

أما آخر المهازل فقد كان إصدار قرار بفرش المساجد بالكراسي بدل السجاد، وإدخال آلات "الأورج" الموسيقية إليها، لتنظيم حفلات تجويد القرآن على وقع المعازف! إلا أن هذا القرار وحده لم يجرؤ على تنفيذه أحد..! ولعل الله عصم كتابَه المجيد من هذا الهوان!

وارتبطت في ذهن المعلم مصطفى حلقات السلسلة الجهنمية، وأدرك يقيناً أن وطنه المريض قد وقع أسير أخطبوط أسود! وأيقن أن هذا الدخان الشديد لا بد أن تلتهب نَارُهُ يوماً!

عند دخوله على تلامذته ذات صباح، وجد نفسه يقرأ بصوت عال: "بسم الله الرحمن الرحيم!" كانت الكلمات تفيض من قلبه الكريم على مقامات الشَّجَا؛ مما جعل لها أثراً خاصاً في نفوس التلاميذ! ولما استوى بين أيديهم واقفاً، وجدهم ينظرون إليه باندهاش، وساد بينهم صمت غريب حتى تشجع أحدهم فقال: هلاَّ تفضلتَ أستاذنا فشرحت لنا كلمات هذه النشيد الجميل؟

وفي أقل من ومضة نور، وجد المعلمُ نفسَه يقود بطلابه سفينةَ الأشواق في بحار الروح! ولم يستيقظ من مشاهدة رؤياه، حتى سمع جرس المدرسة يعلن نهاية المساء الدراسي!

لما وصل المعلم مصطفى مدرستَه في اليوم الموالي، وجد المديرَ في استقباله، واقفاً بالباب كأنه صنم من حَجر، فما أن اقترب المعلم منه حتى اعترضه بإشارة حازمة من يده، وأوقفه على طريقة رجال الشرطة ثم سلمه قرار الطرد إلى الأبد!

## باب الخروج: بين سعيد النورسي وسعيد بيران

كلاهما "سَعِيدٌ" إن شاء الله!.. إلا أن سعيدا النورسي هو بديع الزمان!

ففي البدايات الأولى لهذا الكسوف الرهيب، قام الشيخ سعيد بيران البالوي -رحمه الله- بثورته الكبرى في شرقي الأناضول، فجهز جيشاً من خيرة القبائل، ورؤساء العشائر، وأعلن العصيان على السلطة الحاكمة! لكن جيوش الدولة قمعتها بالطائرات والأسلحة الفتاكة، وطاردت الثوار في المغارات والجبال، فكانت مذبحة رهيبة ذهب ضحيتها آلاف الشهداء، وكثير من النساء والأطفال، وتناثرت جثث القتلى بين الوديان والقيعان، بما لم يشهد له شرق تركيا مثيلاً، ولا في الحرب العالمية الأولى! وقُبِضَ على الشيخ سعيد بيران، فتم تنفيذ حكم الإعدام فيه مع أربعين قياديا من مساعديه الكبار! وذلك يوم التاسع والعشرين من شهر يونيو ١٩٢٥م. ثم شُكِّلَتْ بعد ذلك محاكم تفتيش رهيبة، زرعت الخوف والرعب في القلوب، على طول البلاد وعرضها، ونُصبت المشانق لمئات العلماء والوعاظ!

كان بديع الزمان النورسي يبصر بعين حدسه هذه المآلات الرهيبة كلها، ويتوقع مذابحها قبل حدوث الثورة البالوية، ولذلك فقد اعترض

على الشيخ سعيد بيران منهجَه الثوري منذ البداية، وأرسل إليه رسالة ينصحه فيها، ويشرح له عدم جدوى المواجهة العسكرية، في زمن كان قد انهار فيه كل شيء! واتضح جليا أن المنهج هو العودة إلى إعادة التأسيس من جديد، وإلى البدء بمرحلة تربية الرجال وإنقاذ الإيمان!

واكتوى النورسي بنار ثورة الشيخ سعيد بيران، رغم عدم مشاركته فيها! ومع أنه ظل معتكفا بخلوته الجبلية في شرقي البلاد، فإن السلطات ساقته إلى منفى قرية "بارلا" النائية، وعزلته عن المجتمع، بعيداً عن الأنظار! وهناك شرع الأستاذ النورسي في كتابة أول رسائل النور سنة ١٩٢٨م، وجعل يُهَرِّبُهَا بواسطة بعض خُلَّصِ طلابه الأوائل، من أهالي القرية الصغيرة، فيسافرون بنسخها الخطية، إلى كل مكان.

لقد كانت رسائل النور دعوةً لإعادة إحلال قَطْرِ الوحي في العصر الحديث، وحركةً للتحقق بمنازل السيرة النبوية بين طلاب النور، والعيش على مواجع آلامها ولذة آمالها!.. إنها استئناف لحركة التاريخ في الأمة، وتجديدٌ لفتوة الدعوة الإسلامية، من دار الأرقم وشعاب مكة، إلى فتح مكة! إنها خضوع طويل المدى لابتلاءات القرآن، وتَلَقٍّ صَابِرٌ لأحكامه وحِكَمِهِ، وسَيْرٌ على موازين مراحله، ونتائج تحققاته في النفس والمجتمع، والتدرج معها رَهَباً ورَغَباً حتى يأذن الله بالهجرة!..

.....

وكان لمواجع النورسي في دعوته قصةٌ أخرى..! فلم يزل يحمل أسرار مواجيده في سلته الصغرى، حتى ألقاها مناماً إلى فتح الله، ثم رحل!

وهنا تجلت دلالة الرسالة من "السيرة الذاتية" للنورسي، وانكشف رمزها كما وردت في رؤيا "حاتم" صاحب فتح الله! لقد كان بديع الزمان

ساعتها في سنوات عمره الأخيرة، فلم يعش بعد الثمانين إلا ثلاث سنوات، ثم رحل! فكانت رسالته المقتطفة من سيرته الذاتية إلى فتح الله، بعثاً إليه بتجربة حياته، وثمرة مكابداته، ونتاج عمره كله! ألقَى بِكَلْكَلِهِ الثقيل على كاهل الفتى في سلة واحدة!

ونادى فتحُ الله غداةَ الرؤيا: لبيك يا سيف النور البتار..!

ومِنْ علَى مئذنة مسجد أرضروم، نشر الفتى شراعَ أجنحته في الريح، وطار..!

ولقد رأيته يا سادتي يحلق في الأفق، ضارباً بوميض الوجد اللاهب، نحو ظلمات الغرب البعيد..!